الموسيقي بارنبويم يتهم بمعاداة اسرائيل

ثائر صالح / بودابست

أسم دانييل بارنبويم في عالم الموسيقى أشبه بأسماء الحائزين على جائزة نوبل ساماراغو أو غراس مثلاً في عالم الأدب، فهو من بين أهم قادة الأوركسترا أهمية في العالم اليوم، إن لم يكن أهمهم. والفنان الحقيقي أكثر حساسية تجاه القضايا الإنسانية من غيره، وبارنبويم اليهودي المولود في الأرجنتين فنان حقيقي. فقد حرص دائماً على التعبير عن أمله في الوصول إلى سلام حقيقي وعادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، واعتاد تحدي الأوامر العسكرية الإسرائيلية والذهاب إلى رام الله في الضفة الغربية لتقديم حفلات موسيقية هناك. واعتاد كذلك - كفنان حقيقي - أن يتسامى على الطروحات البدائية الفجة، المليئة بالمزايدات، فهو يقدم إلى جانب بيتهوفن وموتسارت أعمال الموسيقار الألماني المبدع ريشارد فاغنر برغم تحريم الصهيونية تقديم أعماله بسبب محبة هتلر لموسيقاه. غير أن فاغنر المسكين وموسيقاه لا يتحملان وزر محبة النازيين، فقد توفي في ١٨٨٣، أي قبل ظهور النازية وهتلر بعقود. وقد شبهت ذات مرة هذه الفكرة السخيفة بمثال خيالي، هو أشبه بمن يدعو إلى تحريم قراءة شعر المتنبي مثلاً بدعوى أن واحداً من دكتاتوريي العالم العربي المعاصرين، لنقل صدام حسين، كان يحب شعره (مع أنني أشك في توفر ذائقة شعرية أو أدبية حقيقية عند أي مستبد حقيقي، فهذا وذاك نقيضان). وبارنبويم ليس ظاهرة فريدة في هذا المجال، إذ "أكثر" قائد الأوركسترا الكبير المرحوم جورج شولتي (سولتي أو زولتي كما يسمى عادة) من تقديم أعمال فاغنر كذلك وهو اليهودي المجري الأصل، برغم أنه لم يزر معسكرات الاعتقال النازية لحسن حظه وحظنا، فقد أمضى الحرب العالمية الثانية وهو يعمل في سويسرا فنجا من المحرقة. وتعتبر تسجيلات شولتي لفاغنر من بين أجمل تسجيلاته، منها تسجيل دراما تريستان وإيزولدا مع فرقة فيينا الفيلهارمونية.

لكن بارنبويم بقوة فنه فرض نفسه على العالم. وقد تسلم في مبنى الكنيست يوم الأحد ٩ أيار (مايو) الجاري جائزة مؤسسة "وولف" للموسيقى وقيمتها ٥٠ ألف دولار، تبرع بها لتشجيع الموسيقى لدى الأولاد اليهود في إسرائيل والأولاد الفلسطينيين في رام الله. وقال بارنبويم في كلمته التي ألقاها في هذا الحفل ولاقت حسب صحيفة يديعوت أحرونوت تصفيقاً حاراً من قبل الكثير من الحضور: "هل يمكن أن نتجاهل الهوة التي لا تحتمل بين ما تم التعهد به في وثيقة الإستقلال و[بين] مواصلة الإحتلال والسيطرة على شعب آخر؟"، وأضاف متسائلاً: "هل يمكن للشعب اليهودي، الذي يحفل تاريخه بالمعاناة المتواصلة والملاحقات، أن يسمح لنفسه أن يكون لا مبالٍ حيال معاناة شعب آخر؟".

كانت كلماته هذه كافية لقيام الدنيا ورفضها القعود. فقد اتهم الرئيس الإسرائيلي موشيه كاتساف ووزيرة التربية ليمور ليفنات على الفور قائد الأوركسترا الشهير دانييل بارنبويم بالتهمة الجاهزة: معاداة إسرائيل. ونهج الرئيس والوزيرة نفس النهج المعتاد في اتهام كل من ينتقد الممارسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة بمعاداة إسرائيل (ومعاداة السامية بالطبع إن كان من "الأغيار"، لكن بارنبويم لا تنطبق عليه هذه الصفة لسوء حظهم). فقد ثارت الوزيرة اليمينية، وهي رئيسة اللجنة التي قررت منح الجائزة للموسيقار، وطلبت حق الكلام، وقالت: "بودي أن أعرب عن الأسف على قيام بارنبويم باختيار هذا المكان وهذه المنصة من أجل مهاجمة دولة إسرائيل"، وذكرت أن قرار منحه الجائزة كان محط خلاف لأنه تجاهل في السابق مشاعر الناجين من جرائم الكارثة النازية وقدم أعمال الموسيقار ريشارد فاغنر التي أحبها النازيون في مهرجان إسرائيل حسب تعبير إيلان مارسيانو كاتب صحيفة يديعوت أحرونوت.

غير أن كاتساف مضى أبعد من ذلك في تعليقه قبيل نهاية الإحتفال، عندما قال: "إنني أعتقد أن بارنبويم يستحق الإدانة ليس بسبب الكلمة التي ألقاها فحسب، وإنما، أيضاً، بسبب المساس بمشاعر الناجين من جرائم الكارثة النازية. إنه مساس أخطر من كلمته". وفي هذا الكلام دس وتزوير صريحان، إذ كيف يمكن لرئيس إسرائيل أو وزيرة تربيته أن يتفوها بمثل هذا الإدعاء، ويعطيا لنفسيهما الحق في التحدث باسم الناجين من المحرقة، وهناك بين الناجين من آوشفيتس و"الشوا"، ممن يعلن صراحة عشقه لموسيقى فاغنر؟ وليس في هذا مبالغة، فالكاتب اليهودي المجري إمره كرتيس الذي حاز جائزة نوبل للآداب سنة ٢٠٠٢ يعشق موسيقى فاغنر، بالتحديد دراما "الفالكيريا"، برغم مروره بآوشفيتس وبوخنفالد! إذ تحتل هذه الدراما الموسيقية (حسب تعبير فاغنر نفسه) موقعاً أساسياً في عمله المعنون "الراية الأنكليزية"، التي يصف كرتيس فيها كيف سيطرت هذه الموسيقى على لبه وأخذت عقله، وأصبحت وسيلة من وسائله لتجاوز تأثيرات السلطة التوتاليتارية المستبدة في بداية الخمسينيات. فقد تحولت دار الأوبرا وأوبرا فاغنر هذه بمثابة جزيرة يلجأ إليها الكاتب للهروب من "الكارثة وعصر الكارثة".إن الجريمة الحقيقية لبارنبويم هي دعوته لإنهاء الإحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية وإلى السلام العادل وقيام الدولة الفلسطينية.

عن الإبداع.. وسلوك المبدع

برهان شاوي

(١)

في حوار طويل جدا أجراه المؤرخ الموسيقي والصحافي الروسي (فلكوف) مع الشاعر الراحل (يوسف برودسكي)، سأله فيه عن تجربته الشعرية، ورايه في الشعراء الآخرين، لاسيما بالشاعرة (آنا آخماتوفا)، فكان جوابه كالتالي:(كل ما له علاقة بآخماتوفا هو جزء من الحياة.. والحديث عن الحياة يشبه محاولة القط لإقتناص ذيله.. إنه صعب بشكل لا يصدق، لكني أود أن أثبت هنا بأن كل لقاء مع آخماتوفا كان بالنسبة لي معاناة رائعة.. لا سيما حين تدرك جسديا وروحيا بأنك تلتقي بأفضل الشخصيات، بأنسان، نبرة واحدة منه تهزك من الأعماق، فنبرة واحدة من صوت آخماتوفا أو إلتفاتة واحدة من رأسها كافية لتثملك، فمن خلال الحديث معها، عند شرب الشاي او الفودكا تشعر بانك أصبحت مسيحيا بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.. وفي أسوأ الحوال ستقرأ النصوص المطلوبة أو ستذهب الى الكنيسة. إن دور الشاعر في المجتمع يؤدي في حد ما الى الطريق نفسه..).

(٢)

لا أود الحديث هنا عن الشاعرة (آنا آخماتوفا)، ولكن قبل فترة تهاتفت مع إنسان أعتز به كثيرا، فساقنا الحديث،الى قضية مهمة جدا، على الأقل على مستوى علاقة النص بالمتلقي، لا سيما في مجتمعات ثقافتها شفاهية، وسماعية، كالمجتمعات العربية.

وتوقفنا عند الإبداع وسلوك المبدع، عند الشاعر وسلوك الشاعر، فهناك الكثير من الشعراء والأدباء لهم مؤلفاتهم الشعرية والأدبية التي تؤكد على الجمال، وتحتج على القبح والعنف والظلم والظلام الذي يخيم على العالم، مؤلفات وروايات ونصوص علاقتها بالعالم والأشياء في منتهى الرقة والعذوبة والانسانية والمسؤولية، لكن اصحابها ومؤلفيها انفسهم يفتقدون الى الأدب، والنبل، والرقة والمسؤولية في ممارساتهم اليومية.

فهناك شاعر او روائي يكتب القصائد الجميلة، والروايات الجيدة حقا، لكنه في الواقع وفي الحياة اليومية تافه النفس، نجس الروح، فظ الطباع، دنيء المطمح، كذاب أشر، حقود، مبتذل التعبير، منافق، مغرور، أجوف، خشن التصرف، وسخ الأعماق، حتى أنك لتعجب كيف صدرت تلك الإضاءات عن مستنقعاته الآسنة تلك!

قد يقول أحدهم بأن القاريء يتعامل مع النص الشعري او الأدبي، وليس مع شخصية الشاعر أو الكاتب، لأنه قد لا يعرفه أو يتعرف عليه أبدا، وبالتالي يكون سلوك الشاعر والأديب مجهولا بالنسبة له، وهذه حجة قوية، لكن ماذا لو إلتقى القاريء بشاعر أو كاتب كالذي وصفناه!

ومع الأسف ان الكثير من القراء والناس العاديين فقدوا ايمانهم بالثقافة والمثقفين، بالشعر والشعراء، والأدب والأدباء، والفن والفنانين، وبالمثقفين عموما، خصوصا بعد التعرف الشخصي بهم، متابعة مواقفهم واخبارهم وموقف بعضهم من بعض، او من خلال الأقتراب منهم ومن عوالمهم، إذ تتكشف لهم الأقنعة، فهؤلاء تكشفوا لهم عن كوارث إنسانية حقيقية، وكما صنفتهم لي احد القارئات بانهم:

اما ذئاب ضارية يحرقون أطنانا من بخور الكلمات لأصطياد فريستهم، لاسيما اذا كانت أنثى، أو مهرجين مملين يرقصون كالسعادين، سواء أمام ذوي النفوذ أو امام الأنثى ثانية، وفي أحسن الأحوال فهم ليسوا أكثر من (بياعي كلام)!

الكتاب في مواجهة السلطة

معاناة باعة الكتب في شارع المتنبي

اعتقالات ومداهمات تطال المكتبات والمخازن وحتى البيوت

لا يزال الكتاب المستنسخ يثير شهية القارئ العراقي

جلال حسن

بضاعة المتنبي المحرمة

ربما لا يعرف قراء الكتاب الممنوع في زمن الطاغية، المعاناة الحقيقية لبائعي الكتب على رصيف شارع المتنبي في كيفية إنجاز الكتاب وطريقة توزيعه بمئات النسخ المنجزة على أجهزة الاستنساخ ووصوله إلى القارئ، معاناة ممزوجة بالخوف والحذر والموت، خصوصاً حين تشتد المراقبة المداهمة في أيام الأزمات السياسية التي كانت تمر بالبلد، وتكثر عيون رجال الأمن على كل من يرتاد هذا الشارع، لأن بعض الكتب تعتبر من المحرمات التي قد تؤدي ببائعي هذه الكتب إلى الإعدام. وتدفع عائلته ثمن الرصاصات المستخدمة في القتل مشروطة بعدم إجراء مجلس العزاء. وتزداد المعاناة حين يقوم رجال الأمن بحملات تسمى (تعقيمية) تتم فيها مداهمة مخازن الكتب وتفتيش كل شيء، لذلك يضطر هؤلاء الباعة لترك الشارع حتى تنتهي هذه الحملات الاستفزازية.

ومع اشتداد الرعب وكابوس الحصار والفاقة، استطاعت مجموعة من بائعي الكتب أن تجد لها عملاً بعنوان (بائع كتب متجول) إذ حاولت أن تجد لها سيرة من حياة الموت والعذاب باستنساخ هذه الكتب المحظورة التي تصل إلى بغداد عن طريق التهريب أو عن طريق بعض الأصدقاء العائدين من المنفى.

هؤلاء الباعة يروجون لتلك الكتب بالسر وتحديداً يوم الجمعة حين يكتظ الشارع بالمثقفين والأدباء والفنانين. أما نوعية هذه الكتب فمعظمها سياسية تفضح دور النظام وأساليبه الإرهابية في تعذيب العراقيين وكتب فكرية ودينية ومجاميع شعرية وروايات وكتب نقدية يصدرها أدباء عراقيون في المنفى خصوصاً الأدباء الذين هربوا من بطش النظام لذلك أصبح شارع المتنبي رئة العراق الثقافية وأكبر موزع للكتب والمرجع لجميع التيارات، كونه مصدراً للثقافة (الممنوعة) التي تتخفى سراً خوفاً من أن يكتشفها المخبر ويحدث ما لا تحمد عقباه، وطبعت كتب كثيرة داخل العراق بعيداً عن عين الرقيب الحزبي في وزارة الإعلام سابقاً، دراسات وبيانات ومجاميع شعرية وغيرها، فظهرت حرة في خطابها المعرفي وتحليلها الصريح للكارثة العراقية.

ولا يزال حتى الآن الكتاب المستنسخ يثير شهية القارئ العراقي ويحقق مبيعات جيدة.

معتقلون وكتب ممنوعة

الآن وبعد مضي أكثر من عام على الخلاص من نظام صدام الدموي وبالرجوع إلى تلك الأيام المخيفة والمرة في الذاكرة الثقافية، أغبط بائعي الكتب المستنسخة. على قدرتهم على الصمود وامتلاكهم ذوات نبيلة وعراقية صادقة، ليس لأنهم كانوا يمدون القارئ المثقف في محنته وحصاراته بكتاب أو منشور جديد ممنوع بما يتيح إمكانية ممارسة القراءة وما يستجد في ثقافة العالم من معطيات ما وراء جهل وأمية النظام الظلامي، بل التواصل المعرفي مع نتاجات فكرية حديثة في زمن خنق الأنفاس.

هؤلاء الباعة كانوا الخلاص، لأنهم ابتكروا بوسائلهم البسيطة من أجهزة الاستنساخ بفتح آفاق ومنافذ لترويج الفكر الحي في زحمة الثقافة الرديئة. فكانوا يحملون حياتهم وحياة عوائلهم على راحاتهم من أجل كتاب ربما لا يساوي ربحه قطرة دم متحملين خطورة كبيرة، ليس لأنهم اتخذوا موقفاً إنسانياً مع شعبهم فحسب بل لم يقعوا في فخ النظام واساليبه القذرة، فظلوا أوفياء وشرفاء برغم إغراءات النظام المباد، ولأن نصيب الكثير منهم كان في السجون والمعتقلات... لذلك يستحقون الاحترام والإشادة.

سعد خيون بكالوريوس إدارة واقتصاد، اعتقل بسبب بيع كتب ممنوعة تحدثت معه عن سبب اعتقاله في سجون النظام السابق فقال:

- تعرضت إلى الاعتقال١٩٦٦ بتاريخ ١٩٩٢ بتهمة ترويج الكتب الدينية قضيت ٩ أشهر بالتعذيب في مديرية الأمن العامة وحاكمية المخابرات وكان يشرف على عمليات التعذيب والتحقيق العقيد عبد العزيز. بعدها أصدر الحكم علي وفق المادة ٢٠٨ سبعة أعوام سجن، قضيت ثلاث سنوات منها مع بائع الكتب السيد ضياء خالد بنفس التهمة. وحين كنت أقضي مدة السجن تعرضت عائلتي إلى مضايقات من رجال الأمن وثم حجز أخوتي ولم تنته المضايقات حتى بعد خروجي من السجن بل امتدت إلى المراقبة اليومية وتفتيش المخزن العائد لي. لكني اكتسبت خبرة في التخفي منهم بشراء أكثر من مخزن. وعن طبيعة الكتب التي كان يقوم باستنساخها؟ تحدث سعد خيون:

- هناك عناوين كثيرة منها كتب السيد محمد باقر الصدر.. فلسفتنا... واقتصادنا، موسوعة السيد محمد صادق الصدر الكاملة، الشيعة والدولة القومية للمؤلف حسن علوي، مذكرات الجواهري، العراق البيرية المسلحة حركة حسن سريع وقطار الموت للمؤلف الدكتور علي كريم سعيد.

أما علي طالب خريج معهد هندسي فتحدث عن تجربة الاعتقال بنفس التهمة:

كنت أعمل في بيع الكتب المنوعة أيضاً وتعرضت إلى موقف مخيف مع رجال الأمن من خلال مدير مكتب وزير الداخلية سابقاً على ترويج كتاب العراق بأجزائه الثلاثة للمؤلف حنا بطاطو لكن هذا المدير أخذ مني كتباً بقيمة خمسة وعشرين ألف دينار طمعاً بها. وحكم علي بسبعة أعوام سجن وفق المادة ١٥٧ قضيتها في سجن ابو غريب.

ثقافة الاستنساخ.. ثقافة مواجهة

سالنا علي الأميري بكالوريوس قانون عن كيفية تعامله مع الكتاب المستنسخ فقال:

لقد شكلت ظاهرة الكتب المستنسخة نوعاً من المواجهة وأسست لثقافة معارضة قام بها مجموعة من المثقفين الباعة وحول كيفية التعامل مع الكتاب: تعاملت مع نوعين من الكتب المستنسخة.. النوع الأول هو الكتاب المنهجي المقرر في الكليات والمعاهد والذي يدرس وفق المناهج التدريسية للطلبة وكذلك المعاجم والقواميس، وبكل صراحة أقول: لقد ساهمت مع بعض زملائي باعة الكتب بتهيئة الكتاب العلمي للطلبة في أحلك الظروف الاقتصادية في زمن الحصار وبأسعار رمزية للتخلص من جشع التجار المستوردين.. فمثلاً قاموس المورد لمنير البعلبكي والذي يحتاجه الطالب، سعر الأصل يباع بـ٦٠ ألف دينار عراقي. فقمت باستنساخه وبيعه بـ ١٣ ألف دينار هذا الفارق كان ضربة قاصمة لهؤلاء التجار الأشرار الذين يعلمون جيداً بدخل العائلة العراقية وما يعانيه الآباء من عوز وفاقة.

أما النوع الثاني من الكتب فهو السياسية والفكرية والثقافية العامة التي كنت أروج لها وأبيعها بطريقة التوزيع الشخصي - لاني كنت استنسخ منها أعداداً قليلة لكن بمرور الوقت أصبح كل صديق يأتي بصديق آخر للتبضع من هذه العناوين فكنت حذراً جداً ومرة حين علمت بمداهمات رجال الأمن للبيوت أحرقت كل كتبي في البيت بأن وضعتها بالتنور وكان قلبي يحترق قبل أن تشب النار فيها.

سالناه عن العناوين التي كانت رائجة في البيع آنذاك فأجاب:

هناك كتب كثيرة أذكر منها: العراق هل سيقوى على البقاء حتى ٢٠٠٢ كراهام فولر، القسوة والصمت.. الحرب.. الطغيان،الانتفاضة. للمؤلف كنعان مكية، تجربتي مع حزب البعث / للمؤلف خالد علي صالح، تاريخ العنف الدموي في العراق، الوقائع - الدوافع - الحلول تأليف باقر ياسين.

أما السيد كريم حنش / ماجستير تاريخ فله أكثر من حكاية حول المضايقات التي تعرض إليها، فقال:

تعرضت إلى ثلاث حالات من هذا النوع - الأولى: مرة اشتريت كتاباً مستنسخاً بعنوان (العراق دولة المنظمة السرية) للمؤلف حسن علوي وقد أعطيته لأحد الأصدقاء استعارة وأثناء تفتيش محل صديقي عثروا على هذا الكتاب، وحين جاءوا إلى محل عملي كنت ولحسن المصادفة غير موجود في ذلك اليوم مما دفع أحد الأصدقاء لإخباري عن الموضوع - تلك المضايقة اجبرتني على ترك السوق لمدة ستة أشهر مطارداً ومتابعاً من قبل ملازم عمر ولولا الرشوة والوساطة لكنت دخلت السجن.

أما المحاولة الثانية في أثناء عبوري شارع المتنبي استدعاني اثنان من رجال الأمن وقاما بتفتيش حقيبتي، فوجدا فيها كتاب (الريل وحمد) للشاعر مظفر النواب، وبعد عدة تبريرات ومبلغ ٢٥ ألف دينار أطلقوا سراحي.

والمحاولة الثالثة، كانت قبل سقوط النظام السابق بأشهر فقد بلغ استهتار رجال الأمن لأبسط الأشياء من أجل المصادرة وأخذ الرشوة علناً فقد بلغ بأحد المفوضين الأمر أن يكون سيد الشارع في يوم ما يأمر وينهي واستدعاني لمنع بعض الكتب العلمية بحجة أنها غير مرخصة من الجهات المعنية، مما حدا بي إلى دفع الرشوة بدلاً من الاعتقال وأمام الملأ.

مثقفون.. باعة وكتب محرمة

يطول الحديث عن هذه الشجون الحزينة التي عانى منها المثقف العراقي في محنته التي استمرت أكثر من ربع قرن من العذاب والتهميش والفقر والخوف، لكنها أصبحت ذكريات يفتخر بها الآن أمام الأجيال الجديدة في عراق جديد ديمقراطي.

التقينا أحد أشهر باعة الكتب الإنكليزية السيد سعدون هليل المنشد وهو بائع الكتب العتيد المعروف والذي شوهد مرة في صيف ٢٠٠٢ في شهر آب يسير وسط رجال الأمن وقد ضبط متلبساً بجريمة الكتاب الممنوع في منتصف نهار شارع المتنبي. سألته: عن طبيعة الكتب التي كان يتعامل بها والترويج لها فتحدث عن تجربته:

يمكن القول أن طبيعة الكتب هي السياسية والثقافية والأدبية التي تعري النظام البعثي الفاشي، وأغلب هذه الكتب يسارية الفكر والتي تتضمن المذكرات لبعض الكتاب المتنورين مثل د- فالح عبد الجبار وعصام الخفاجي وفاضل العزاوي وسعدي يوسف وغيرهم، وهؤلاء مفكرون واجتماعيون مثل مذكرات زكي خيري وبهاء الدين نوري ورحيم عجينة ومذكرات المناضل سلام عادل التي كتبتها عنه زوجته المناضلة (ثمينة) ود-كاظم حبيب.

وإن من أهم الكتب التي كنت أروج لها كتب الباحث الاجتماعي المعروف د- فالح عبد الجبار الذي كتب عن تركيبة المجتمع العراقي وبالذات عشيرة صدام وكيف تسلقت هذه العائلة سلم السلطة وأمسكت برقاب الشعب العراقي وجرائم أسرته وأشقائه وابناء عمومته - وهناك كثير من الكتب المهمة لسلام عبود (ذبابة القيامة) ونجم والي وزهير الجزائري وغيرهم الكثير وجمهورية الخوف عراق صدام للمؤلف كنعان مكية. وكتاب الذات الجريحة للكاتب سليم مطر والذي أدخل ضمن منهاج كلية العلوم السياسية وغيرها. أما عن المصادفات الغريبة في هذا الصدد في وقت كان فيه الفرد مليئاً بالرعب والخوف حتى وإن لم يعمل أي شيء تحدث سعدون هليل قائلاً: تعرضت لموقف لم أحسد عليه ذات يوم حين كنت أحمل حقيبة مليئة بالكتب المنوعة مثل جمهورية الخوف والحزب الهاشمي لسيد محمود القمني وأوكار الهزيمة وتجربتي مع حزب البعث العراقي للمؤلف هاني الفكيكي وفندق السعادة / حكايات من عراق صدام حسين للمؤلف جليل العطية.

وحرب الخليج لمحمد حسنين هيكل وغيرها من الكتب.

ومتجهاً إلى مكان تجمع السيارات فوجدت سيارة واقفة بالقرب من هذه السيارات فيها عناصر الأمن للنظام البعثي فصاح بي أحدهم صيحة وحشية لا تحمل من الأخلاق شيئاً سحبت نفسي بكل هدوء لكنهم سلبوني وهذه الحقيقة يعرفها رواد شارع المتنبي، ناهيك عن التعهدات الكثيرة في دائرة الأمن والتي كنت أوقع فيها لآخر مرة لكن هدفي كان أكبر من ذلك بكثير.

الرسامة عفيفة لعيبي...

وفاء للمنطلقات الأولى

خالد خضير

قد تكون أية مقارنة بين أسلوب رسم عفيفة لعيبي وأي من مجايليها من الذين بقوا في العراق، واتجهوا صوب التجريد هي مقارنة ظالمة ربما لعفيفة لعيبي نفسها بدرجة أكبر من أولئك، فلا يمكن لأحد الإدعاء باكتشاف وجود ترابط (سببي) بين توجهاتها (الواقعية) وبين رحيلها عن العراق، وبين توجه غالبية الرسامين ممن بقوا في العراق نحو التجريد.

لقد رفض هربرت ريد مثلاً إدخال هنري روسو بين رواد الرسم الحديث، برغم سمعته المعروفة بين الرسامين المحدثين، وكان دافعه في ذلك أن (سذاجة) أسلوبه لا تعد نوعاً من الحداثة، وكذلك استثنى الرسم الواقعي لأنه رسم يعد استمراراً بدون تغيير للتقاليد الأكاديمية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، لكنه أكد بأنه لا ينكر (القيمة الكبيرة، والأهمية التي تمتعت بها أعمال فنانين مثل أدوارد هوبر وغيره) وأكد (أنهم ينتمون إلى تاريخ الفن في عصرنا حتماً، ولكن ليس إلى تاريخ أسلوب الرسم الحديث بالذات)، فهل إن ذلك ينطبق على أسلوب عفيفة لعيبي، ومن يرسم على شاكلتها، أي تنتمي إلى تاريخ الرسم العراقي ولكن لا تنتمي إلى حداثة ذلك الرسم. نحن نؤكد بداية إيماننا أن أية مقارنات بين الرسامين لا تعطي نتائج بتلك الأهمية التي نتصورها، فإن كل رسام هو نتاج وحده، وإن لا علاقة (سببية)، بذلك الفهم لقانون السببية بين أسلوب أي رسام وبين المقارنات المحيطية التي يجريها البعض، فقد تدفع ظروف ما رساماً للاتجاه نحو توجه ما ولكن لا يمكن الإدعاء أن ظروفاً بعينها ستنتج رسوماً موحدة الأسلوب، ذلك تمام الوهم، فكم من ظروف متماثلة لم تنتج تجارب متماثلة.

إن أهم خصائص الرسم الحديث، برأينا، هي متيريالية العمل، وهي تعني في أبسط مدلولاتها المعالجة التقنية للمادة بشكل يجعلها المهيمنة الأكثر أهمية في اللوحة، ونحن نعتقد أن تلك هي السمة الأهم التي يبرر إدخال أسلوب عفيفة لعيبي ضمن تيار (الحداثة)، فقد حاولت تكريس نفسها بكونها (رسامة مادة) من نمط خاص، فهي رسامة تعرف كيف تفجر طاقة اللون التعبيرية، وبذلك تحتفظ لها بمكان داخل منطقة الحداثة، برغم موضوعاتها (المشخصة) إن صحت التسمية، بذلك تنتمي تشخيصتيها إلى فن الرسم باعتباره رسماً، بينما تنتمي معالجتها لسطح اللوحة إلى الحداثة بصفتها تجربة (مغامرة) تقنية، تماماً كما هو الشعر العربي الكلاسيكي (العمودي) الذي ينتمي إلى فن الشعر كخطوة أولى، وقد نجد فيه، كما نجد في نصوص أسبق منه زمناً، علامات (حداثوية) كامنة.

لا تخفي عفيفة لعيبي معارضتها لرهط من الرسامين التجريديين العراقيين المحدثين، الذين اتخذوا التجريد بصفته وسيلة للأفلات من هيمنة المشخص بينما تختفي عفيفة لعيبي بالمشخص الذي تكرسه باعتباره علامة مؤكدة على دخول عالم الرسم.

لم تخطر عفيفة لعيبي، في ذهني، منفردة، إلا وهي مقرونة بأخيها الرسام فيصل لعيبي، فإن كان الأخير يبني عوالمه من حشود من البشر الذين يمكن أن نلتقيهم في حياتنا اليومية، كل لحظة، في المقهى، أو السوق، أو أية زاوية مهملة من زوايا مدننا، فإن عفيفة لعيبي تكتفي من هذه الحشود بعينة واحدة، أو عينتين في كل لوحة، بل هي تنتقي من هذا الحشد عينة، غالباً ما تكون امرأة، منطوية على أسرارها، وأحزانها، بحنو وتكتم شديدين، وسرية لا نظير لها، وقد تكون تلك المرأة في حقيقتها بورتريها للرسامة نفسها، تماماً مثلما أدمن، ميراندت رسم نفسه، ومثلما أدمن فان كوخ، أنها ترسمها دائما بلقطات منفردة، مفتوحة، يلفها صمت ثقيل تشي به معالجة متأنية للون تنجز بها أعمالها، بألوان دافئة تسهم في تكريس أجواء الحزن والصمت، وهذا برأينا أهم الفروق التي تميز هذين الرسامين عن بعضهما، وعن الآخرين، (فاللقطة) عند فيصل لعيبي مغلقة مكتفية بموجوداتها، بينما هي مفتوحة عند عفيفة لعيبي، ومقربة Zoom in ونصفية، وبذلك يتكرس فيها طابع التواصل الإنساني بين المتلقي والبطل figure، في حين تكون بنية معمارية لوحة فيصل لعيبي، لقطة مغلقة، يظهر فيها أبطاله بكامل أشكالهم، وهم يؤدون أفعالاً اجتماعية: يتناولون الشاي في مقهى أو يصبغون الأحذية أو يدهنون النرجيلة ونحو ذلك، ويتواجدون في أماكن تم تشييدها بعناية، بينما لا تعير عفيفة لعيبي اهتماماً لتشييد أبعاد المكان، فليست هنالك حوادث ليحتويها. إن لوحاتها فضاء كئيب، وأرض موات، بلا حوادث ولا بطولات، لقد هجره الجميع إلا هذا (الكائن) المعزول (الرسامة نفسها) في هذا المكان (الضيق) الذي هو أبعاد اللوحة ذاتها، وهو يعاني الوحدة، والوحشة، والهم المستديم، إنه كائن منغلق على نفسه واسرارها، وأسرار صناعة اللوحة التي بذلت فيها عفيفة لعيبي جهداً كبيراً، في دراسة اللقطة، حتى لا تترك أية مفاجأة قد تخلقها العضوية أو المصادفة، وقد يكون الناتج عالماً حلمياً، قد ينتمي جزء منه إلى عالمنا، بينما ينتمي جزؤه الأعظم إلى عالم بلدان العجائب السحرية، حيث الأميرات المسحورات ينتظرن فرساناً لا وجود لهم يهبطون من السماء على ظهر أفراس مجنحة!.

بعد انقطاع طويل تابعت أعمالها الأخيرة، فوجدتها كما كانت، أكثر وفاء وتمسكاً بمنطلقاتها ومرتكزاتها الأولى: الاحتفاء بالمرئي، والاحتفاء بالإنسان، ذلك الإنسان الوحيد، المعزول، المقهور، الصبور، الحزين، المناضل، القتيل، العاشق والمعشوق... امرأة وحيدة منعزلة، تصورها الرسامة بالهيئة نفسها تقريباً، هي الأنثى الكامنة في داخل الرسامة، أنثى شفيفة ووديعة، ومكتنزة دائماً، تماماً مثلما كانت نساء بيكاسو في مرحلته الكلاسيكية الجديدة، نساء جميلات، ساهمات، ممتلئات، يشحن بوجوههن وأبصارهن عنا، ربما مكابرة، وربما لسبب آخر غامض، إنهن مغمضات الأعين طوال ما مضى من السنوات، بينما تبدو بعضهن في ما يشبه نصف إغماضة ناعسة الآن، فربما كانت الرسامة تدعوهن إلى إعادة الحسابات والتفاهم مع العالم المحيط، فقد يكون عهد مقاطعة ذلك العالم قد ولى، وحان وقت تقبل حلول أخرى!..